

احسان

كَانَتْ إِحْسَانُ فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ فَقَدَتْ أَبَاهَا وَأُمَّهَا
 مِنْذُ الصُّغَرِ ، فَذَهَبَتْ لِتَعِيشَ فِي مَنْزِلِ خَالِهَا فِي
 الرَّيْفِ ، وَكَانَ رَجُلًا غَنِيًّا ذَا مَالٍ وَضَيَاجٍ وَاسِعَةٍ
 وَخَدَمٍ وَحَشِيمٍ . وَكَانَ لَهُ زَوْجَةٌ غَنِيَّةٌ أَيْضًا ،
 وَكَانَ لَهُ مِنْهَا بِنْتَانِ . وَسَمِعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَإِنَّ مُعَامَلَةَ
 هَذِهِ الْأَنْتَرَةِ لِتِلْكَ الْبَيْتَةِ كَانَتْ مُعَامَلَةً قَاسِيَةً
 مَلَأَى بِالْإِزْدِرَاءِ وَالتَّحْقِيرِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ فَقِيرَةً ،
 وَلِأَنَّهَا كَانَتْ وَدِيعَةً مُتَوَاضِعَةً . فَكَانَ الْحَالُ
 لَا يَحْنُ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ زَوْجُهُ تُكَلِّفُهَا الْخِدْمَةَ
 فِي الْمَطْبَخِ ، وَلَا تَسْمَحُ لَهَا بِالنَّوْمِ فِي الْمَنْزِلِ ، بَلْ
 فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ فِي الْحَدِيقَةِ مِنْ حُجْرٍ اتَّخَذَ .
 وَكَانَتْ الْفَتَاةُ مَعَ هَذِهِ الْقِسْوَةِ عَلَيْهَا تَحْنُو عَلَى
 الْفُقَرَاءِ أُمًّا لَهَا ، وَتُقَاتِلُهُمْ فَضَلَاتِ الطَّعَامِ الَّتِي
 تُتْرَكُ لَهَا ، وَالْمَلَأْسَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي تَحْمِلُهَا عَلَيْهَا بَنَاتُ
 خَالِهَا ، وَلِذَلِكَ أَطْلَقَ عَلَيْهَا الْفُقَرَاءُ اسْمَ «إِحْسَانٍ»
 وَذَاتَ لَيْلَةٍ أَتَتْ إِلَى بَابِ الْمَطْبَخِ امْرَأَةٌ
 عَجُوزٌ قَبِيحَةُ الْخَلْقَةِ ، وَطَلَبَتْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ
 وَمَأْوًى ، فَطَرَدَتْهَا الْخُدَامُ ، وَلَكِنْ إِحْسَانُ
 قَدِمَتْ لَهَا طَعَامَهَا ، وَغَسَلَتْ الْقُدُورَ وَالْأَوَانِي ،

ثُمَّ قَدِمَتْ لَهَا فِرَاشَهَا ، وَنَامَتْ هِيَ عَلَى حَصِيرٍ
 فِي أَرْضِ حُجْرَتِهَا . وَفِي الصَّبَاحِ الْمُبَكَّرِ ،
 وَإِحْسَانُ لَا تَزَالُ نَائِمَةً رَحَلَتِ الْعَجُوزُ مِنْ
 غَيْرِ أَنْ تُقَدِّمَ كَلِمَةَ شُكْرٍ وَاحِدَةً عَلَى هَذَا
 الْعَطْفِ . وَفِي الْمَسَاءِ عَادَتِ الْعَجُوزُ إِلَى بَابِ
 الْمَطْبَخِ ، وَطَلَبَتْ طَعَامًا وَمَأْوًى مَرَّةً أُخْرَى ،
 فَطَرَدَتْهَا الْخُدَامُ ، وَلَكِنْ إِحْسَانُ قَدِمَتْ لَهَا
 طَعَامَهَا ، وَغَسَلَتْ الْقُدُورَ وَالْمَوَاعِينَ ، ثُمَّ قَدِمَتْ
 لَهَا فِرَاشَهَا ، وَنَامَتْ هِيَ عَلَى حَصِيرٍ فِي أَرْضِ
 حُجْرَتِهَا . وَفِي الصَّبَاحِ الْمُبَكَّرِ ، وَإِحْسَانُ لَا تَزَالُ
 نَائِمَةً ، رَحَلَتِ الْعَجُوزُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُقَدِّمَ كَلِمَةَ
 شُكْرٍ وَاحِدَةً عَلَى هَذَا الْعَطْفِ ، وَاسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَى
 ذَلِكَ سِتَ لَيَالٍ أُخْرَى . وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تُقَدِّمُ
 إِحْسَانُ عَشَاءَهَا وَفِرَاشَهَا لِلْعَجُوزِ وَلَا تَحْصُلُ مِنْهَا
 عَلَى كَلِمَةِ شُكْرٍ وَاحِدَةٍ أَوْ تَحِيَّةٍ مِنْ أَى نَوْعٍ .
 وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّاسِيَةِ حَضَرَتْ كَمَاذِهَا إِلَى بَابِ
 الْمَطْبَخِ وَمَعَهَا كَلْبٌ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ وَقَالَتْ
 لِإِحْسَانٍ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا : « مَسَاءُ الْخَيْرِ يَا بُنَيَّ
 الصُّغِيرَةِ ، إِنِّي لَا أُرِيدُ عَشَاءَكَ وَلَا فِرَاشَكَ بَعْدَ

الآن ، ولكي سائرُك كذا هذا في رعايتك
إذ لا يوجد من يرغب في العناية به في هذه

البلدة ، لأنه شرس
وتبيح المنظر وأنا
راحلة لزيارة
صديقة لي ولا أعود
إلا عند حلول أقصر
نهار في السنة
وما كادت تنتهي
من كلامي حي
أسرعت راحلة ،
واختفت عن
الأنظار. أما الكلب
فقد أخذ يداعب
إحسان ويلق
يديها ، وبالعكس
كان شرسا مع غيرها ،



وفتحت النافذة ودخل قوم قصار القامة . . .

دقيقتا من القس في دُكن من أركانها . وكانت ،
من فرط كمها من العمل في أثناء النهار وجزء
من الليل ، تنام نوما
عميقا طول الليل ،
فلا تعلم شيئا مما
كان يجري حولها .
وكان خدام المنزل
يسألونها ، قائلين :
« ما هذا الضوء
الساطع الذي ينبعث
من حجرة نومك
ليلا ؟ وما هذه
الأصوات العذبة
والأحاديث المهدبة
التي نسمعها ؟ »
وكانت إحسان
تقول : « إنه لاشك

ضوء القمر الذي يدخل الحجرة من نافذة العارية ،
وإن الأحاديث التي يقولون عنها إن هي إلا أحلام
وتخيلات . » وذات آله ، وكانت ليالي الشتاء قد
أخذت تطول ، وأخذ النهار يقصر ، دعا الفضول

لا يسمح لاحد أن يقترب منه . وقد أفردت
له حظيرة قديمة من حظائر الحيوانات المنزلية ،
وكانت تقامه طعامها . ولما أفيل الشتاء ، واشتد
البرد ، نقلته إلى حجرة نومها ، وفرشت له فراشا

خادماً صغيرة في المنزل إلى السهر ومراقبة
حجرة لإحسان من ثقب الباب. فرأت الكلب
راقداً على الترسيم الجاف (الترس) في ركن
الحجرة ، وإحسان نائمة في فراشها يوماً
عميقاً ، والقرير يملأ الحجرة بضوئه من خلال

النافذة العارية ، وفي وسط
هذا الشكون فيح زجاج
النافذة فجأة ، ودخل منها
جماعة من الرجال قصار
القامة ، يلبسون ملابس
قرمزية مذهبة. وتقدموا
بكل خشوع واحترام نحو
الكلب ، وقال أحدهم ،



إحسان تنظف القدور

وكان يلبس ملابس أفخر وأثمن من ملابس
الآخرين ، مخاطباً الكلب : « يا صاحب السمو
الملكى ، لقد أعددتنا المأذبة فيماذا تأمر
سموكم بعد ذلك ؟ »

فقال الكلب : « حسنًا فعلتم ، والآن
اعيدوا العدة للحفل الساهر ، وليكن كل شيء
عالياً في البهاء والعظمة ، فقد قررت الأميرة ،
وقررت معها أن نحضر معننا ضيفاً لم يدخل

قصرنا من قبل . » فقال الرجل القصير : « ستم
وطاعة يا مولاي الأمير . » واتحى هو ومن
معه باخترام ، وانصرفوا خارجين من النافذة .
وبعد قليل أقبلت جماعة من الفتيات ، تلسن
ملابس من المخمل الوردى ، ويحمل كل منهن
مصباحاً من البلور ثم تقدمن
من الكلب باخترام وتبجيل ،
وقالت إحداهن ، وكانت
أبهر الجميع جمالاً وهنداماً :
« يا صاحب السمو الملكى ،
لقد جهزنا الأثاث والرياش ،
فيم تأمر سموكم بمدة
ذلك ؟ » فقال الكلب : « حسنًا

فعلت ، والآن أعيدن الملابس ، وليكن كل شيء
عالياً في البهاء والعظمة ، فقد قررت الأميرة ، وقررت
معهما أن نحضر معننا ضيفاً لم يدخل قصرنا من
قبل . » فقالت الفتاة : « ستم وطاعة يا مولاي
الأمير . » واتحنت هي ومن معها باخترام ،
وانصرفن خارجات من النافذة التي أقبلت في
الحال من نفسها يهتو عجب . وقد دهشت الخادم
مما رأت ، وأخذها الدهول والعجب ، وأقبلت

سَيِّدَهَا كُلَّ مَا حَدَّثَ، وَلَكِنَّهَا ضَعِكَ مِنْهَا ،
وَقَالَتْ إِنَّهَا تَحِيلَاتٌ وَأَضْنَاتُ أَهْلَامٍ ، لِأَنَّ عَقْلَهَا
لَا يَدُّ أَنْ يَكُونَ بِهِ مَسٌّ مِنْ جُنُونٍ أَوْ خَبَلٍ .

غَيْرَ أَنْ حُبَّ الْإِسْطِطْلَاجِ
تَمَلَّكَ مَشَاعِرَهَا ، فَقَالَتْ
فِي نَفْسِهَا : «رُبَّمَا كَانَ هُنَاكَ
شَيْءٌ مِنَ الْحَقِيقَةِ فِيمَا
ذُكِرَتْ الْخَادِمُ .» وَفِي
اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ عِنْدَ مَا نَامَ
كُلُّ مَنْ فِي الْمَنْزِلِ خَرَجَتْ
تَسْأَلُ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى
حُجْرَةِ إِحْسَانَ ، وَأَخَذَتْ

زَرْقُبُ مَا يَحْدُثُ مِنْ خِلَالِ ثَقَبِ الْبَابِ ،
فَرَأَتْ كُلَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ كَمَا وَصَفَتْهُ الْخَادِمُ .
وَعَادَتْ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْمَ مِنْ
شِدَّةِ الْمَجَبِّ وَالْإِضْطِرَابِ ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا ،
وَقَصَّتْ عَلَيْهِ الْقِصَصَ ، فَضَحِكَ مِنْهَا ، وَقَالَ إِنَّهَا
تَحِيلَاتٌ وَأَضْنَاتُ أَهْلَامٍ . غَيْرَ أَنَّهُ فِي اللَّيْلَةِ
التَّالِيَةِ صَمَّ عَلَى أَنْ يَكْشِفَ عَنِ الْحَقِيقَةِ بِنَفْسِهِ ،
وَانْتَظَرَ حَتَّى نَامَ كُلُّ مَنْ بِالْمَنْزِلِ ، وَنَزَلَ
بِسَطْلَعٍ اخْتَبَرَ مِنْ ثَقَبِ الْبَابِ ، فَرَأَى كُلَّ



وبعد قليل اخبت جماعة
من الغتيات . . .

شَيْءٍ يَحْدُثُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ زَوْجُهُ . وَعَادَ إِلَى
مَضْجَعِهِ يُفَكِّرُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْمَجِيبِ ، وَيُحَاوِلُ
النَّوْمَ عَيْنًا مِنْ شِدَّةِ اضْطِرَابِهِ . وَدَهْشِهِ وَيَسْمَا
هُوَ يُفَكِّرُ إِذْ تَذَكَّرَ أَنَّ جَدَّهُ الْأَكْبَرَ كَانَ قَدْ
ذَكَرَ أَنَّ هُنَاكَ قَرِيبًا مِنْ ضِعْفِهِمْ هَذِهِ طَرِيقًا
يُوصِلُ إِلَى رَوْضَةٍ يَقْطَعُهَا

قَوْمٌ أُخْيَارٌ مِنَ الْحِجْزِ .
وَمِنْ ذَلِكَ أَيْقَنَ أَنَّ
الْكَلْبَ لَا يَدُّ أَنْ يَكُونَ
جَنِيًّا طَبَّ الْقَلْبِ ، وَأَنَّهُ
بِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَتَمَلَّقَهُ
وَيَتَوَدَّدَ إِلَيْهِ . فَنَظَرَ
الصُّبْحَ قَامَ وَجَهَّزَ فَطُورًا
جَمِيلًا مِنْ لَحْمِ الضَّأْنِ
الْمَقْلِيِّ ، وَحَمَلَهُ بِنَفْسِهِ إِلَى
الْكَلْبِ ، وَلَكِنَّ الْكَلْبَ رَفَضَ الطَّعَامَ ، وَلَمْ
يَمْسَسْهُ ، وَزَجَرَ وَطَارَدَ الرَّجُلَ وَكَادَ يَعْضُهُ وَيَفْتَرِسُهُ
لَوْ لَمْ يَجْرِ وَيَفِرَّ هَارِبًا وَمَعَهُ اللَّحْمُ .

وَفِي الْمَسَاءِ يَتِمَّا كَانَتْ الْأُسْرَةُ تَتَنَاوَلُ عَشَاءَهَا
عَلَانِيًا الْكَلْبُ ، وَسَمِعَ طَرَقًا عَلَى بَابِ الْمَطْبَخِ .
فَقَامَتْ إِحْسَانُ وَفَتَحَتْهُ ، فَإِذَا بِالْمَجُورِ الْقَبِيحَةِ

الْخَلْقَةِ مُجِيبًا ، وَقَوْلُ : « هَذَا أَقْصَرُ نَهَارٍ فِي السَّنَةِ ،
وَقَدْ عُدْتُ مِنْ سَفَرِي الطَّوِيلِ ، وَقَدْ أَحْسَنْتِ
مُعَامَلَةَ كُلِّي . فَأَنَا أَذْعُوكِ إِلَى مَنْزِلِي ، وَسَأَبْدُلُ
جَهْدِي أَنَا وَكُلِّي لِلْإِحْتِفَالِ بِاسْتِقْبَالِكَ ، وَجَعَلِهِ
مُنْعِمًا سَمِيدًا . وَهَذَا هُوَ الرَّكْبُ مُقْبَلٌ فِيهَا بِنَا »
وَمَا كَادَتْ الْمَجُوزُ تَنْتَهِي مِنْ كَلَامِهَا حَتَّى دَوَى
فِي الْفَضَاءِ صَوْتُ الصَّوْرِ ثُمَّ صَوْتُ الْمَوْسِقَى ،
وظَهَرَتْ مِنْ بَعِيدِ أَضْوَاءِ النُّشَاعِلِ ، وَأَخَذَتْ
تَقْدِرُ وَتَتَقَدَّمُ حَتَّى ظَهَرَ الرَّكْبُ : عَرَبَاتٌ فَخْمَةٌ
تَجْرُهَا صَافِنَاتٌ مِنَ الْجِيَادِ الْبَيْضِ يَجْلِسُ فِيهَا
أُنَاسٌ يَلْبَسُونَ مَلَابِسَ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْأَهْبةِ
وَالْمُظْمَةِ ، مُحَلَّاةٌ بِالذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ . وَكَانَتْ
الْعَرَبَةُ الْأُولَى ، وَهِيَ ابْنَى وَأَفْخَمُ جَمِيعِ الْعَرَبَاتِ ،
حَالِيَةً مِنَ الرَّاكِبِينَ . وَفِي الْحَالِ أَخَذَتْ الْمَجُوزُ
بِيَدِ إِحْسَانٍ ، وَقَادَتْهَا إِلَى تِلْكَ الْعَرَبَةِ وَقَفَزَ
الْكَلْبُ رَاكِبًا مَعَهَا . وَمَا كَادَ يَسْتَقِرُّ بِهِمْ
الْجُلُوسُ فِيهَا حَتَّى حَدَثَتْ مُعْجِزَةٌ : إِذْ تَحَوَّلَتِ
الْمَجُوزُ إِلَى أَمِيرَةٍ بَارِعَةٍ الْجَمَالِ ، وَتَحَوَّلَ الْكَلْبُ
إِلَى أَمِيرٍ يَافِيعٍ بَعِي الطَّلَعَةِ فِي مَلَابِسٍ وَرْدِيَّةٍ
اللونِ مُحَلَّاةٍ بِالْفِصَّةِ وَالذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ الْعَالِيَةِ .
حَدَّثَ ذَلِكَ وَإِحْسَانٌ دَهْشَةً مَذْهُولَةً مِمَّا

تَرَى . وَهُنَا تَسْكَمُ الْأَمِيرُ ، وَقَالَ : « أَنَا أَمِيرٌ ،
وَهَذِهِ أُخْتِي أَمِيرَةٌ أَيْضًا مِنْ أَمْرَاءِ الْجَانِّ . وَقَدْ
اخْتَلَفْنَا فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ إِذْ أَرْعَجْتَنِي حَالَةً
بَنَى الْإِنْسَانِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ طَمَعٍ
وَرِيَاءٍ . فَقُلْتُ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ خَلَتْ تَمَامًا مِنْ
ذَوِي النُّفُوسِ الطَّيِّبَةِ وَمِنْ الْمُحْسِنِينَ . وَقَالَتْ
أُخْتِي إِنَّهُ لَا يَزَالُ فِيهَا بَعْضُ الطَّيِّبِينَ . وَتَرَاهُنَا ،
وَقَدْ خَسِرْتُ الرَّهَانَ إِذْ وَجَدْنَاكَ . وَعَلَى مَصَارِفِ
حَفَلَاتِ اسْتِقْبَالِكَ وَالْهَدَايَا . » وَسَارَ الرَّكْبُ
حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَمْلَكَةِ الْجَانِّ وَرَأَتْ فِيهَا مِنْ
الْعَجَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَسَمِعَتْ فِيهَا
مَا لَمْ تَسْمَعُهُ أُذُنٌ . وَفِي قَصْرِ الْأَمِيرِ قَامَتِ
الْحَفَلَاتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ ، وَلَبَّتْ إِحْسَانُ
أَبْنَى الْأَزْيَاءِ مِنَ الْمُخْمَلِ الْأَخْضَرَ الرَّاهِي ، وَنَاسَتْ
فِي حُجْرَةٍ مِنَ الْعَاجِ عَلَى فِرَاشٍ مِنْ سُندُسٍ
وَأَسْتَبْرَقٍ . وَفِي مَسَاءِ الْيَوْمِ السَّابِعِ تَحَرَّكَتْ بِهَا
عَرَبَةٌ مَلَكِيَّةٌ تَجْرُهَا سِتَّةٌ مِنَ الْجِيَادِ الْبَيْضِ
تَتْبَعُهَا أُخْرَى مُحْمَلَةٌ بِالْهَدَايَا النَّفِيسَةِ مِنْ ذَهَبٍ
وَحُلِيِّ وَجَوَاهِرٍ . وَسَارَتْ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى بَابِ
الْمَطْبُخِ فِي مَنْزِلِ خَالِهَا . وَهَنَّاكَ كَانَ أَفْرَادُ